صورة جديدة

بعكس المكان القديـم في كل تفاصيله، كان الرجل يبدو متأنقًا، لافتًا للنظـر ببذلته الرمادية، وقميصه الأبيض الزاهـي، وربطة العنق الحمراء الداكنة. لاحظت أنه يضـع منديلًا في جيب الجاكيت العلوي بنفس لون الكرافت. شـعره الرمـادي لامعٌ ومصففٌ بعناية شـديدة. أعدتُ النظر إلى المنديـل الأنيق في جيبه. ربما لم أرَ أحدًا يضع منديلًا سـوى في الأفلام والتليفزيون والصور فقط. مبتسمٌ بوجهه الطويل المحتفظ بوسامة لم تزل. له عين رمادية كشعره بنفس لون البذلة تقريبًا.

تفوح من المكان رائحة عتيقة، مميزة. كروائح المكتبات القديمة. كان المكتب الجالس عليه ممتلئًا بعشرات من آلات التصوير، مختلفة الأحجام والأشكال، بعضها قديمٌ جدًا. مرصوصة بعناية على كل شبر من المكتب.

الحائط مكتظٌّ ببراويز الصور التي التقطها. ربما غبتُ دقائق وأنا أتأمّلُها. وأتأمَّل ابتسامات الناس المشرقة بدرجة غريبة. ثمة فرحة تتقافز من أعينهم جميعًا. تنبهتُ لنظرة الرجل التي لم تفارقني، وابتسامته الخفيفة وهو ينتظر أن أنتهي من تأملي لما حولي. «آسف.. لكن الصور جميلة فعلًا».

«شكرًا». قالها مقتضبةً بصوتٍ أجش عميق.

لم أنطق. ظللت أتأمل صوته الذي ملأ الهواء حولي.

«هل تخبرني لأي شيءٍ تريد الصورة؟».

«لا أدري»؛ بإحراج وابتسامة ساذجة مني. ظلَّ صامتًا منتظرًا أن أقوم بالتفسير أكثر.

«إمم.. معتادٌ على التصوير كل فترة.. للطوارئ. لم أجد عندي صورًا جديدة لي ففكرتُ في التصوير».

ظل يتأملني ثانية دون كلام. كأنما يقوم بقياس تفاصيل وجهي. مدَّ يده بين الكاميرات الكثيرة أمامه، وتناول واحدةً بعدسةٍ كبيرةٍ ممتدة أمامها، فحصها، ووضعها أمامه بحرص على طرف المكتب.

«متى سأستلم الصور؟».

«على الفور». ثم أكمل بصوته المشروخ: «وهذه الصور هدية مني، ملامحك غنية جدًّا». أعجبني ما قال فابتسمتُ. حتى أنني نسيتُ أن أُصرَّ على الدفع.

ظلَّتْ الابتسامة تتسع على شفتي وهو يهبُّ من مكانه متناولًا الكاميرا من أمامه بقوَّة. كان طويلًا، وهبَّتْ لفحة من عطره الثقيل مع وقوفه.

مهيبًا، له كاريزما واضحة وكاسحة. سار للداخل، عبر ستارة داكنة تحجب ضوء الخارج. مشيرًا لي أن أتبعه. مشيتُ خلفه كالمسحور. المكان بالداخل شبه مظلم. عارٍ تمامًا من أيَّ شيء؛ ستارة بيضاء وحيدة فقط على الحائط الأمامي المتآكل من الرطوبة، وكرسي خشبي متوسط الطول في منتصف الحجرة تقريبًا. أشار لي لأجلس ففعلتُ. ضغط على زرٍ جانبه فانعكست الإضاءة على الستارة خلفي لتصنع ظلالًا متداخلة. كان ممسكًا بالكاميرا الكبيرة بيد، وبالثانية كان يشير لي لأعدِّلَ وضع جلستي. هادئًا، يضيق عينيه باهتمام وهو يواصل الإشارت بأصابعه الرفيعة الطويلة.

«هل تعلم أنني لا أملك أيَّ صورٍ لي؟» قالها فجأةً بدون مقدمات.

لم أجد ما أقوله فواصلت صمتي وتأملي له. «لم أفكر في التقاط أي صورة لي من قبل. ربما لأنني لا أثق في عدسات الآخرين». هززت رأسي، واسترخيت في جلستي قليلًا. تدلَّى كتفاي، وأرحتُ رقبتي التي كانت مشدودة منذ ثوانٍ. «قمت بتصوير كل من أحب، التقطت لهم لحظات لا تنسى». حاولتُ أن أتكلم لكني من جديد لم أجد ما أقول. فهمهمتُ محرجًا من صمتي.

«لتخبرني عن صورك؟».

تفاجئتُ بالسؤال. فابتسمت وقلت له بصوتٍ حاولت أن أجعله ودودًا: «كما أخبرتك. أحرص على التقاط الصور لي كل فترة؛ لتجديد الكارنيهات المختلفة. لا أحب وضع الصور القديمة في الكارنيهات الجديدة». تتسع عيناه قليلا، أراها بصعوبة في المكان خافت الإضاءة، وهو يبتسم: «عظيم».

«كنتُ معتادًا على التصوير عند صديق لي. لكنه سافر وأغلق الأستوديو الخاص به». كأنني أبرر لماذا لم آتِ له من قبل. يواصل إصغاءه وتأمله، أرخى ذراعه التي تحمل الكاميرا جانبه، وتقدم للأمام قليلًا؛ وجدتُ نفسي أحكي: «كانت أولى صور ابني هناك منذ سنين. كان صغيرًا لا يستطيع الجلوس، وضعنا المساند حوله وخلفه كي لا يقع. واستطاع صديقي إخفاءها في الصورة فلم تظهر».

«هل تحب تلك الصورة؟».

«نعم. جدًا جدًا. أحتفظ بها في محفظتي». مددتُ يدي لجيبي الخلفي لأخرج المحفظة. فتحتها وأخرجت من بين صورٍ عديدة تلك الصورة. ظننتُ أنَّه سيقترب ليراها، لكنه ظلَّ واقفًا مكانه لم يتحرك. ظللتُ ممسكًا بها في يدي مُحرجًا وأنا أكمل: «في ذلك اليوم أيضًا تصورت مع زوجتي، ونحن نمسك بطفلي بيننا، نحتضنه ونحن نضحك. معي تلك الصورة أيضًا».

«لتخرجها». فتحتُ المحفظة وأخرجتُها سريعًا؛ لكنه لم يتقدَّم أيضًا ليراها. فكرتُ بأنَّه لا يريد أن يقاطعني. فواصلت: «العجيب أننا تصورنا معًا كثيرًا بعد هذا. كثيرًا جدًّا، إلا أنني تقريبًا لا أتذكر سوى ذلك اليوم. معي العديد من الصور الأخرى له ولنا. إلا أن تلك الصور هي المفضلة لي»، وأشرت له بها.

«هل تعلم. سأخبرك بشيءٍ غريب». قالها بصوته المشروخ القويّ وهو يمدُّ يده ليتناول علبة سجائر من جيبه ويشعل واحدة. انعكس اللهب

على وجهه ثوان، سـحب نفسًـا قويًا، وهو يواصل: «هل رأيتُ كل تلك الصور الموجودة بالخارج. تلك التي كنت تشـاهدها، والموضوعة بطول الحوائط كلها؟».

«نعم. نعم. ما بها؟». «هل تعلم أن أصحابها لم يأتِ أيٌّ منهم لاستلامها بعد! بالكامل. كل الصور التي في الإطارات على الحائط». شعرتُ بتـوترٍ مفاجئٍ، حاولتُ الاعتدال في جلستي، إلا أن المقعد كان صغيرًا، ومتعبًـا جدًا.

يواصل هو نفخ مزيدٍ من الدخان الكثيف وسط الإضاءة الخافتة الساقطة على الحائط خلفي. ويقول: «انتظرتُهم كثيرًا؛ إلا أنهم لم يأتوا. قمت بوضعها في براويـز، وعلقتها على الحائـط أمامي وحولي؛ ربـما لأتذكرهم إن جاء أحدهـم ثانية». يصمت لثوانٍ ويكمـل: «وإن كنتُ لا أعتقد أن أحدهم سيحضر».

حاولـت أن أتحرك من جديد إلا أن الجلسـة المنخفضة بسـبب المقعد أثقلت ظهري. ففردته دون أن أهب. كنت متعجبًا مما يقول ربما لم أصدقه تمامًا إلا أنني لم أعارضه فقط قلت بتعجب: «غريبٌ جدًا!!».

«الأغرب لم يأتِ بعد». قالها وهو يرمي بسـيجارته على بلاط الأرض العارية تحته، ويقوم بإشعال واحدة أخرى. تنبهتُ واقتربتُ بجلستي على طرف المقعد غير المريح؛ ليكمل: «ما إن قمتُ بتعليق آخر صورة على آخر جزءٍ خالٍ من الحائط عندي حتى توقف الناس عن المجيء للتصوير؛ ربما

كانت صدفة؛ لكني لا أؤمن بوجود صدف في الحياة أبدًا. كل شيءٍ مُعدٌّ، ومرتب بدقة.. أليس كذلك؟».

أجبتُ بحيرة: «ربما.. لا أدري». كان قد عاد للخلف ثانية وهو يتكلم، أمسك الكاميرا القديمة بكفيه الاثنتين أمام وجهه، وقام بضبط الكاميرا الأمامية. يعود للخلف خطوة أخرى، ليغرق في الظلام بالخلف. لا أرى سوى انعكاس عدسة الكاميرا فقط، وشعلة السيجارة المتوهجة.

بصوته الأجش، العميق: «هل أنت جاهز؟». أردت إخباره بأن وضع جلستي قد اختلف، وأنني قد تحركت، ولم يقم هو بضبطي ثانية. حاولتُ الاعتدال وشدَّ ظهري، دون أن يعلق هو بأي شيء. ظلَّ جامدًا بالكاميرا أمام وجهه دون أن يتحرك. كانت أنفاسي تتلاحق، والعرق يغمرني تمامًا، تنبهتُ لهذا الآن، فكرت بأن أطلب منه الانتظار ومساعدتي. إلا أنني صمتّ. كرر هو بصوته الرتيب: «هل أنت جاهز؟». كنت لا أزال ممسكًا في يدي بالصورتين، فقبضت عليهما كفيَّ بقوة، وأنا أقوم بفرد ظهري عاليًا، وأميل بوجهي لأواجه العدسة. «نعم». ظل هو متجمدًا في وقفته طويلًا، شعرت بأن الثواني لا تمر. قبل أن يغمرني الضوء الأبيض البارد للفلاش القديم.